﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون: 23 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ الآياتِ لِما قبلَها وجوهٌ متقاربةٌ:

التَّمثيلُ بأحوالِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بعدَ بيانِ دلائلِ التَّوحيدِ

منها: أنَّها ابتداءُ تمثيلٍ لكفّارِ قُريشٍ بأُمَمٍ كفرَتْ بأنبيائِها، فأُهلِكوا، وفي ذلكَ وعيدٌ بأنْ يَحُلَّ بهؤلاءِ نحوُ ما حلَّ بأولئكَ[1].

ومنها: أنَّهُ ﷺ لمّا بيَّنَ دلائلَ التَّوحيدِ أردفَها بالقَصَصِ، كما هو العادةُ في سائرِ السّوَرِ[2].

ومنها: أنَّ الكلامَ شُروعٌ في بيانِ إهمالِ الأُمَمِ السّابقةِ، وتركِهم النَّظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّدَ مِنَ النِّعَمِ الفائتةِ للحصرِ، وعدمِ تذكُّرِهم بتذكيرِ رُسُلِهم، وما حاقَ بهم لذلكَ مِنْ فُنونِ العذابِ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾: (ملأ) أصلٌ يدلّ عَلَى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ[4]، الملأُ: الأشرافُ، سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبةً، والعُيونَ جلالةً[5]، وقيلَ: الملأُ: جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، قالَ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 40.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ملأ).

﴿ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، ويقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعظَّمٌ عندَ مَنْ رآهُ، كأنَّهُ ملأ عينَهُ مِنْ رؤيتِهِ، ومالأتُهُ: عاونتُهُ وصِرْتُ مِنْ مَلَئِهِ، أي: جَمْعِهِ[1].

2) ﴿يَتَفَضَّلَ﴾: (فضل) أصلٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[2]، ومِنْ ذلكَ: الفَضْلُ، وهو الزِّيادةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ، يقالُ: رجلٌ مُفْضِلٌ[3]، وأمّا المُتفضِّلُ فالمُدَّعي للفَضْلِ على أقرانِهِ، قالَ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[4]، والفَضْلُ إذا استُعمِلَ لزيادةِ أحدِ الشَّيئينِ على الآخرِ فعلى ثلاثةِ أضرُبٍ: فضْلٌ مِنْ حيثُ الجنسُ، كفَضْلِ جنسِ الحيوانِ على جنسِ النَّباتِ، وفَضْلٌ مِنْ حيثُ النَّوعُ، كفَضْلِ الإنسانِ على غيرِهِ مِنَ الحيوانِ، وفَضْلٌ مِنْ حيثُ الذّاتُ، كفَضْلِ رجلٍ على آخرَ[5].

3) ﴿جِنَّةٌ﴾: (جن) أصلٌ واحد يدلُّ على سَتْرِ الشَّيءِ[6]، فالجَنَّةُ: ما يصيرُ إليهِ المُسلِمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ، والجَنَّةُ: البستانُ؛ لأنَّ الشَّجرَ بوَرَقِهِ يَسْتُرُ، والجِنَّةُ: الجنونُ؛ لأنَّهُ يُغطّي العقلَ، وجَنانُ اللَّيلِ: سوادُهُ وسَتْرُهُ الأشياءَ، والجِنُّ سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم مُتستِّرونَ عن أعيُنِ الخَلْقِ[7]، والمِجَنُّ والمِجَنَّةُ: التُّرْسُ الَّذي يُجِنُّ صاحبَهُ، أي: يسترُهُ[8]، والجَنانُ: القلبُ؛ لاستتارِهِ بالصَّدْرِ[9].

4) ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: (ربص) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانتظارِ[10]، فالتَّربُّصُ: الانتظارُ بالشَّيءِ، سواءٌ كانَ سلعةً يُقصَدُ بها غلاءٌ أو رُخْصٌ، أو أمرًا يُنتظَرُ زوالُهُ أو حصولُهُ، يقالُ: تربَّصْتُ بكذا، قالَ تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228][11].

5) ﴿حِينٍ﴾: (حين) أصلٌ واحدٌ، ثمّ يُحملُ عليه، والحينُ: الزَّمانُ قليلُهُ وكثيرُهُ، يقالُ:

(1) الراغب، المفردات: (ملأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فضل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) الخليل، العين: (فضل)، والزمخشري، أساس البلاغة: (فضل).
(5) الراغب، المفردات: (فضل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (جنن).
(7) الجوهري، الصحاح: (ربص)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن).
(8) الراغب، المفردات: (جنن).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جنن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربص).
(11) الراغب، المفردات: (ربص)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ربص).

عاملتُ فلانًا مُحايَنةً، وأحيَنْتُ بالمكانِ: أقمتُ بهِ حينًا[1]، وحانَ حينُ كذا، أي: قَرُبَ أوانُهُ، وحيَّنتُ الشَّيءَ: جعلتُ لهُ حينًا، ويُعبَّرُ بالحينِ أيضًا عن وقتِ الموتِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكـرُ شُبَـهِ قـومِ نوحٍ عليه السلام في إنكارِ نُبوَّتِهِ ومجادلته بالباطل

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن نوحٍ عليه السلام حينَ بعثَهُ إلى قومِهِ؛ ليُنذِرَهم عذابَ اللّهِ وانتقامَهُ ممَّنْ أشركَ بهِ، وخالفَ أمرَهُ وكذَّبَ رُسُلَهُ، فيقولُ: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قومِهِ، فقالَ لهُم نوحٌ: يا قومِ اعبُدوا اللّهَ؛ ما لكُم مِنْ معبودٍ يجوزُ لكُم أنْ تَعْبُدوهُ غيرُهُ، أفلا تَخْشَوْنَ بعبادتِكم غيرَهُ أنْ يَحُلَّ بكُم عقابُهُ.

ثمَّ يُخبرُ سبحانَهُ عن جوابِ قومِ نوحٍ، أنّ جماعةً من أشرافِ قومِ نوحٍ الَّذينَ جَحَدوا توحيدَ اللّهِ قالوا لقومِهم: (ما نوحٌ أيُّها القومُ إلَّا إنسانٌ مِثْلُكم، يريدُ أنْ يصيرَ لهُ الفَضْلُ عليكُم، فيكونَ متبوعًا، وأنتم لهُ تَبَعٌ، ولو شاءَ اللّهُ إرسالَ الرُّسُلِ لأرسلَ بالدُّعاءِ إلى ما يدعوكُم إليهِ نوحٌ ملائكةً تُؤدّي إليكُم رسالتَهُ، ما سَمِعْنا بهذا في القُرونِ الماضيةِ، ما نوحٌ إلّا رجلٌ بهِ جُنونٌ فتلبَّثوا بهِ إلى وقتٍ ما)[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

بيانُ أثرِ الجملة الاستئنافيَّةِ في عـرض المعـنى وتجليتِهِ

الواوُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ استئنافيَّةٌ[4]، والجملةُ مستأنفةٌ لذكرِ أمثالٍ لكفّارِ قريشٍ مِنَ الأُمَمِ السّابقةِ المُنكِرةِ لإرسالِ اللّهِ رُسُلًا، المُكذِّبةِ بما جاءَتْهم بهِ الأنبياءُ عنِ اللّهِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(2) الراغب، المفردات: (حين).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 25.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556.

سرُّ الابتداءِ بقصَّةِ نوحٍ عليه السلام:

مناسبةُ قصَّةِ نـوحٍ عليه السلام لذكرِ الفُلْكِ

ذكرَ ﷻ على سبيلِ الحثِّ على الاتِّعاظِ والاعتبارِ أمثالًا لكفّارِ قريشٍ مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بما جاءَتْهم بهِ الأنبياءُ عنِ اللّهِ، وابتدأ بقصَّةِ نوحٍ عليه السلام؛ لأنَّهُ الأبُ الثّاني للبَشَرِ، كما ذكرَ أوَّلًا آدمَ عليه السلام في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12]، ولمناسبةِ قصَّتِهِ لِما قبلَها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، فذكرَ سبحانَهُ قصَّةَ مَنْ صنعَ الفُلْكَ أوَّلًا[1]، ولأنَّ قصَّتَهُ أشهرُ القَصَصِ[2].

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ﴾:

بيانُ أثرِ اللّامِ باعتبارِها واقعةً في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ

اللّامُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، واقعة في جواب قَسَمٍ محذوفٍ، وتصدير القصَّةِ بها؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ لأنَّ لامَ القَسَمِ مِنَ المؤكِّداتِ، وإنَّما يُؤكَّد المُعتنَى بهِ، أي: وباللّهِ لقد أرسَلْنا نوحًا إلى قومِهِ[3].

نكتةُ دخولِ (قد) على الفعلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

تحقيقُ الإرسالِ مؤكَّدٌ بحرفِ التَّحقيقِ وأسلوبِهِ

لمّا كانَ المقامُ لإظهارِ الاعتناءِ بمضمونِ قصَّةِ نوحٍ عليه السلام أُدخِلَ حرفُ (قد) على الفعلِ الماضي ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ دخولَ (قد) على الفعلِ الماضي يُفيدُ تحقيقَهُ، فإرسالُ نوحٍ عليه السلام إلى قومِهِ أمرٌ مُحقَّقٌ معلومٌ، لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ.

نكتةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ الإرسالِ بعظمةِ المُرسِلِ ﷻ

أُسنِدَ الإرسالُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الإرسالِ بأنَّهُ صادرٌ عن ذي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 569.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 129.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 227، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 40.

العظَمةِ والجلالِ ﷻ، وإشارةً إلى زيادةِ التَّسليةِ لنبيِّنا ﷺ بأنَّهُ أوتيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمنَ عليهِ البشرُ، وقامَ هو ﷺ بذلكَ حقَّ القيامِ[1]، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ وتفخيمٌ للمُرسَلِ، وهو نوحٌ عليه السلام.

نكتةُ إضافةِ القومِ إلى الضَّميرِ:

بيانُ رحمةِ اللهِ بالمُرسَلِ إليهِم

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ بمعنى اللّام، يعني: إلى قومٍ لهُ؛ لأنَّهُ منهُم، ومأمونٌ عليهِم، ومعروفٌ لهُم سيرتُهُ الأولى، فإذا قالَ لهُم لا يتَّهمونَهُ، فمِنْ رحمةِ اللهِ بالعبادِ أنْ يُرسِلَ إليهِم واحدًا منهُم، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيةَ [التوبة: 128]، ففي هذا إيناسٌ للقومِ، ولو كانَ الرَّسولُ ملَكًا مثلًا لاستوحشَ القومُ منهُ، ولم يَأنَسوا بهِ، والمعنى هنا: (لم نأتِ لهُم برسولٍ مِنْ جنسٍ آخرَ، ولا مِنْ قبيلةٍ أخرى، بل منهُم، فيأنَسونَ بما يجيءُ بهِ، ولا يَقفونَ منهُ موقفَ المُعاداةِ)[2].

سرُّ العطفِ بالفاءِ في جملة ﴿فَقَالَ﴾:

الدَّلالةُ على سُرعةِ الامتثالِ، منبئةٌ عن فحوى المقالِ

عطفُ قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ على قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ أداءِ نوحٍ عليه السلام رسالةَ ربِّهِ بالفَوْرِ مِنْ أمرِهِ تعالى، وذلكَ هو شأنُ الامتثالِ[3]، وفي ذلكَ مدحٌ لهُ عليه السلام وتعظيمٌ لشأنِهِ.

نُكتةُ الإضافةِ بين نوحٍ وقومِه ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

الإضافةُ للاستعطافِ والشَّفقةِ مناسبةٌ للمقصودِ في السّياقِ

أضافَ نوحٌ عليه السلام في النِّداءِ قومَهُ إلى نفسِهِ، فقالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ استعطافًا لهُم، وترفُّقًا بهِم، وشَفَقَةً عليهِم[4]، واستمالةً لهُم إلى الحقِّ[5]؛ لأنَّ المقامَ مقامُ دعوةٍ لهُم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10000.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.

إلى أهمِّ قضيَّةٍ في الوجودِ، وهي عِبادةُ اللهِ وتوحيدُهُ، وهي خلافُ ما أَلِفوهُ مِنَ الشِّركِ، فاحتاجَ إلى التَّلطُّفِ والتَّرفُّقِ بهِم؛ استنزالًا لطائرِ كِبْرِهم وعِنادِهم، وذلكَ مِنْ رحمتِهِ وحكمتِهِ ﷻ، وينبغي أنْ يقتديَ بهِ الدُّعاةُ إلى اللهِ ﷻ.

نكتةُ حذفِ الياءِ في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

حُذِفَتِ الياءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، ولم يُقَلْ: (يا قومي)؛ إيجازًا واختصارًا.

دلالةُ الأمرِ في الفعل: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا؛ لأنَّ الأمرَ بعبادةِ اللهِ جلَّ وعزَّ ما يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لغيرِ الوجوبِ، وهو لُبُّ لُبابِ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ.

الأمـرُ بالعبادة للوجوبِ، وهو جوهر الرِّسالات عبرَ العصورِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ تحديدًا:

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (اعبُدوا ربَّكم)؛ لِما يُشيرُ إليهِ لفظُ الجلالةِ مِنْ صفاتِ الكمالِ والجلالِ الَّتي بها تُستحَقُّ الأُلوهيَّةُ، فيكونُ أنسبَ بمقامِ الدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ ﷻ وتوحيدِهِ، أي: اعبُدوا المَلِكَ الأعظمَ الَّذي لا كُفْءَ لهُ؛ لأنَّهُ إلهُكم وحدَهُ؛ لاستحقاقِهِ جميعَ خِلالِ الكمالِ[1].

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الأمرِ بالعِبادةِ في السّياق المحكم

علَّةُ تركِ القصرِ في الأمرِ بالعِبادةِ:

قولُهُ ﷻ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ معناهُ: اعبُدوهُ وحدَهُ، كما يُفصِحُ عنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [هود: 26][2]، ولأنَّ مقامَ الخطابِ معَ المشركينَ استدعَى الاختصاصَ[3]، وتركُ التَّقييدِ بهِ

العِبادةُ معَ الإشراكِ ليستْ مِنَ العِبادةِ في شيءٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.

(3) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 159.

للإيذانِ بأنَّها هي العِبادةُ فقطْ، وأمّا العِبادةُ معَ الإشراكِ فليستْ مِنَ العِبادةِ في شيءٍ أصلًا[1].

وقيلَ: قد حُكيَتْ دعوةُ نوحٍ عليه السلام قومَهُ في أكثرِ الآياتِ بصيغةِ أمرٍ بأصلِ عِبادةِ اللّهِ دونَ الأمرِ بقَصْرِ عِبادتِهم على اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّهم وإنْ عَبَدوا الأصنامَ ما كانوا يُنكِرونَ وجودَ اللّهِ، ولذلكَ عقَّبَ كلامَهُ بقولِهِ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، ويدلُّ على هذا قولُهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فهم مُثبِتونَ لوجودِ اللّهِ[2].

نكتةُ الفصلِ بين أجزاء الآية الكريمة:

فُصِلَ قولُهُ جلَّ وعزَّ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ عن قولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولم يُعْطَفْ عليهِ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ قولَهُ سبحانَهُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ جوابًا عن سؤالٍ يقتضيهِ الكلامُ السّابقُ[3]؛ فإنَّهُ لمّا قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ كأنَّهم قالوا: لمَ تأمرُنا بعِبادتِهِ؟ فقالَ: لأنَّهُ ما لكُم مِنْ إلهٍ غيرُهُ[4].

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ من الأساليبِ البليغة

وهو تعليلٌ أخصُّ مِنَ المُعلَّلِ، وهو أوقعُ؛ لِما فيهِ مِنَ الإيجازِ؛ لاقتضائِهِ معنَى: اعبُدوا اللّهَ وحدَهُ، فالمعنَى: اعبُدوا اللّهَ الَّذي تركتُم عِبادتَهُ، وهو إلهُكم دونَ غيرِهِ، فلا يستحقُّ غيرُهُ العِبادةَ، فلا تَعْبُدوا أصنامَكم معَهُ[5].

معنى ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا لَكُم﴾:

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ نافيةٌ، والمرادُ أنَّ عِبادةَ غيرِ اللّهِ لا تجوزُ؛ إذ لا إلهَ سواهُ ﷻ، ومِنْ حقِّ

العبادةُ لله وحده، ولا تكون لأحدٍ سواه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 182، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 570، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.

العِبادةِ أنْ تكونَ لَمَنْ أنعمَ بالخَلْقِ والإحياءِ وما بعدَهما، فإذا لم يصحَّ ذلكَ إلّا منهُ تعالى فكيفَ يُعْبَدُ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ؟![1].

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَكُم﴾:

لامُ ﴿لَكُم﴾ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ للتَّخصيصِ والتَّبيينِ، أي: ما لكُم في الوجودِ أو في العالَمِ إلهٌ غيرُهُ تعالى[2].

نكتةُ تقديمِ قولِهِ تعالى: ﴿لَكُم﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ، يناسبُ هذا التَّقديم

لمّا كانَ السّياقُ للأمرِ بعبادةِ اللهِ ﷻ، وبيانِ تفرُّدِهِ بالأُلوهيَّةِ، واستحقاقِهِ العبادةَ دونَ غيرِهِ، وكانَ المُخاطَبونَ ممَّنْ يُشْرِكُ باللهِ ﷻ؛ قُدِّمَ ﴿لَكُم﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ للاهتمامِ بنفيِ وجودِ إلهٍ غيرِ اللهِ تعالى للمُخاطَبينَ.

علَّةُ الإتيانِ بـ ﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾:

استغراقُ نفيِ الألوهيَّةِ عن كلِّ مَن سوى اللهِ تعالى

لمّا كانَ الغرضُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ نفيَ الأُلوهيَّةِ عن غيرِهِ جلَّ شأنُهُ - أُتيَ بـ ﴿مِّنْ﴾ لإفادةِ استغراقِ النَّفْيِ[3]، أي: ليسَ لكُم إلهٌ غيرُهُ، فلا أُلوهيَّةَ إلّا لهُ ﷻ[4].

غرضُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾ في سياقِ الآيةِ:

التَّنكيرُ للعُمومِ، مفيدٌ للمرادِ في اللَّفظِ المذكورِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿إِلَٰهٍ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ المناسبِ لسياقِ بيانِ تفرُّدِهِ ﷻ بالأُلوهيَّةِ الموجبةِ لإفرادِهِ بالعبادةِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ وبلاغتها:

قراءةُ الرَّفعِ باعتبارِ المَحَلِّ، وقراءةُ الجرِّ باعتبارِ اللَّفظِ

قرأ أبو جعفرٍ والكِسائيُّ: ﴿غَيْرِهِۦٓ﴾ بخفضِ الرّاءِ وكسرِ الهاءِ بعدَها، على اعتبارِ أنّها صفةٌ تابعةٌ لحركةِ اللّفظِ المجرورِ السّابقِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5063.

لها، وقرأ الباقونَ: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ برفعِ الرّاءِ وضمِّ الهاءِ[1]، أمّا الرَّفعُ فعلى أنَّهُ صفةٌ لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبارِ مَحَلِّهِ الَّذي هو الرَّفعُ على أنَّهُ فاعلٌ، أو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿لَكُم﴾، أو محذوفٌ، أي: ما لكُم في الوجودِ أو في العالَمِ إلهٌ غيرُهُ تعالى، وأمّا الجرُّ فباعتبارِ لفظِ ﴿إِلَٰهٍ﴾[2]، فالحجة لمن قرأه بالرفع: أنه جعله حرف استثناء، فأعربه بما كان الاسم يعرب به بعد (إلّا) كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الأنبياء: 22]، ويجوز الرفع في (غير) على الوصف لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ قبل دخول ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ عليه كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، والحجة لمن خفض: أنه جعله وصفا لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾، ولم يجعله استثناء، فهو قولك: (معي درهم غير زائف) [3]، فجمعت القراءتان بين أسلوب الاستثناء الذي يُفهم القصر والحصر، وبين الأسلوب الخبري الوصفي.

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

احتمالُ الاستفهامِ معانيَ مُتعدِّدةً من بليغِ البيان

الاستفهامُ في قولِ الحقِّ تباركَ اسمُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّهُ لمّا كانَتْ أدلَّةُ الوَحدانيَّةِ والعظَمةِ في غايةِ الظُّهورِ، لا تحتاجُ إلى كبيرِ تأمُّلٍ، تسبَّبَ عن ذلكَ إنكارُهُ لأمْنِهم مِنْ مَكْرِهِ، فقالَ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: أفلا تخافونَ ما ينبغي الخوفُ منهُ، فتجعَلوا لكُم وِقايةً مِنْ عذابِهِ، فتعمَلوا بما تقتضيهِ التَّقوى مِنْ إفرادِهِ بالعِبادةِ[4].

وكذلك يأتي الاستفهامُ للزَّجْرِ والوعيدِ؛ فإنَّهُ لمّا لم ينفعْ فيهِم هذا الدُّعاءُ، واستمرّوا على عِبادةِ غيرِ اللهِ تعالى حذَّرَهم بقولِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ ذلكَ زَجْرٌ ووعيدٌ باتِّقاءِ العُقوبةِ؛

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 270.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 157.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.

لينصرِفوا عمّا هم عليهِ[1]، وقيلَ: الاستفهامُ للتَّنبيهِ والتَّحريضِ على اتِّقاءِ العذابِ[2].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

بيانُ كونِ الفاءِ للتَّعقيبِ، والعطفِ على محذوفٍ

الهمزةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِهِ، والفاءُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ، أي: أتَعْرِفونَ مضمونَ قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فلا تتَّقونَ عذابَهُ، بسببِ إشراكِكم بهِ في العِبادةِ ما لا يستحقُّ الوجودَ لولا إيجادُ اللهِ تعالى إيّاهُ، فضلًا عنِ استحقاقِ العِبادةِ؟ فالمُنكَرُ عدمُ الاتِّقاءِ معَ تحقُّقِ ما يوجِبُهُ.

أوِ المعنَى: ألا تُلاحظونَ ذلكَ فلا تتَّقونَهُ؟! فالمُنكَرُ كلا الأمرينِ، فالمبالغةُ حينئذٍ في الكمّيَّةِ، وفي الأوَّلِ في الكيفيَّةِ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ انتفاءِ التَّقوى منبئةٌ عن المطلوبِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ التَّقوى مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ استمرارَ الفعلِ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفْيُ أفادَ استمرارَ انتفائِهِ.

وإنْ كانَ الاستفهامُ للإنكارِ فهو لإنكارِ استمرارِ انتفاءِ التَّقوى معَ وجودِ ما يوجِبُ حصولَها.

غرضُ حذفِ مفعولِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

دلالةُ قرينةِ الحالِ على المحذوفِ، مفيدةٌ في الإبانةِ عن المرادِ

حُذِفَ مفعولُ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ قرينةَ الحالِ تدلُّ عليهِ، والمعنَى: أفلا تتَّقونَهُ، أو أفلا تتَّقونَ عذابَهُ؛ لأنَّ المُشركَ غيرُ مُتَّقٍ للهِ عزَّ وجلَّ، وغيرُ مُتَّقٍ لعذابِهِ، فالحذفُ للتَّعميمِ.

نُكتةُ العطفِ بالفاءِ في: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾:

في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10004.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5063.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 227.

إفادةُ سُرعةِ التَّكذيبِ ملائمةٌ للعطفِ بفاءِ التَّعقيبِ

﴿مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ خولِفَتْ في حكايةِ جوابِ الملأِ مِنْ قومِ نوحٍ ﷺ الطَّريقةُ المألوفةُ في القرآنِ في حكايةِ المُحاوَراتِ، وهي تركُ العطفِ، فعُطِفَ هنا جوابُ الملأِ مِنْ قومِهِ بالفاءِ؛ لوجهينِ:

أحدُهما: أنَّهم لم يوجِّهوا الكلامَ إليهِ، بل تركوهُ وأقبلوا على قومِهم يُفنِّدونَ لهُم ما دعاهُم إليهِ نوحٌ ﷺ؛ حرصًا منهُم على صرفِ النّاسِ عنِ اتِّباعِهِ.

والثّاني: ليُفادَ أنَّهم أسرَعوا بتكذيبِهِ وتزييفِ دعوتِهِ قبلَ النَّظرِ والتَّفكُّرِ(1).

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾:

تحديدُ الملأِ من قومِ نوحٍ انتقاءٌ دقيقٌ للفظِ المُستعملِ

اللّامُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بهم مَلَأٌ مخصوصٌ، وهم مَلَأُ قومِ نوحٍ ﷺ، ويدلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾.

نُكتةُ وصفِ الملأِ بالكفرِ:

الإيذانُ بكمالِ عَراقتِهم في الكفرِ وصمٌ لهم بعارِهِ

وصفُ المَلَأِ بالكفرِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ معَ اشتراكِ القومِ كلِّهم فيهِ؛ للإيذانِ بكمالِ عَراقتِهم وشدَّةِ شَكيمتِهم فيهِ(2)، والمرادُ مِنْ ذلكَ ذمُّهم، لا التَّمييزُ عن أشرافٍ آخرينَ آمَنوا بنوحٍ ﷺ؛ إذ لم يُؤمِنْ بهِ أحدٌ مِنْ أشرافِهم، كما يُفصِحُ عنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27](3).

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ الوصفُ بذلكَ للتَّمييزِ، وإنْ لم يُؤمِنْ بعضُ أشرافِهم وقتَ التَّكلُّمِ بهذا الكلامِ؛ لأنَّ مِنْ أهلِهِ ﷺ المتَّبعينَ لهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 41.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 227.

أشرافًا، وأمّا قولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] فعلى زعمِهم، أو لقلَّةِ المتَّبعينَ لهُ مِنَ الأشرافِ[1].

ولا يخلو هذا القيلُ مِنَ التَّكلُّفِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

في التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ كفرَهم هو الَّذي أنطقَهم بهذا الرَّدِّ على نوحٍ عليه السلام، وهو تعريضٌ بأنَّ مِثلَ ذلكَ الرَّدِّ لا نُهوضَ لهُ، ولكنَّهم روَّجوا بهِ كفرَهم؛ خشيةً على زوالِ سيادتِهم[3].

الإيماءُ إلى علَّةِ الرَّدِّ المُكذِّبِ، والتَّعريضِ ببطلانِ إفكِهم

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ للبيانِ، فتفيدُ أنَّ المَلَأَ الموصوفينَ بالكفرِ مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام.

علَّةُ تكرارِ لفظِ القومِ في: ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فقالَ الملأُ الَّذينَ كفروا منهُم)؛ لرجوعِ الضَّميرِ إلى القومِ المذكورينَ فيما سبقَ، لكنْ عُدِلَ إلى إظهارِ لفظِ القومِ، فقيلَ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾، وكأنَّ أفخاذَهم كانَتْ متمايزةً، فزادَ في الشَّناعةِ عليهِم بأنْ عرَّفَ أنَّهم مِنْ أقربِ النّاسِ إليهِ[4].

زيادةُ التَّشنيعِ على المُكذِّبينَ من البيانِ الفاضحِ للمجرمينَ

دلالةُ إعرابِ قولِهِ: ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾:

الجارُّ والمجرورُ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾[5]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ الملأ متَّصفونَ بصفتينِ: الكفرِ، وكونِهم مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام.

الجارُّ والمجرورُ صفةٌ ثانيةٌ للمَلَإِ، مفيدةٌ في تدقيقِ وصفِهِم

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 160.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 131.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

علَّةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ بين الصِّفاتِ:

التَّسليةُ ببيانِ التَّكذيبِ أتمُّ، والإبـانـة بها أشملُ وأعمُّ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ كلاهما صفةٌ لـ ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾، وقد قُدِّمَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على قولِه: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ ببيانِ التَّكذيبِ أتمُّ، ولأنَّ صلةَ الموصولِ هنا قصيرةٌ، لا يحصلُ بتقديمِها لَبْسٌ ولا ضَعْفٌ في النَّظمِ[1].

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ في محلِّ نصبِ مَقولِ الفعلِ ﴿فَقَالَ﴾، لذلك فإنّها لم تأتِ معطوفةً على ما تقدّمَها.

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

قَـصْـرُ الإفـراد مفيدٌ في بيان جـمـع نـوحٍ بـين الـبـشريَّةِ والرِّسالةِ

القَصْرُ بالنَّفي والاستثناءِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وهو قَصْرُ إفرادٍ؛ لأنَّ نوحًا ﷺ جامعٌ بينَ البشريَّةِ والرِّسالةِ، وهم قَصَروهُ على الاتِّصافِ بالبشريَّةِ، بحيثُ لا يتجاوزُها إلى الاتِّصافِ بالرِّسالةِ، والمعنَى: ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم، أي: في الجنسِ والوصفِ، مِنْ غيرِ فرْقٍ بينَكم وبينَهُ، وصَفوهُ ﷺ بذلكَ؛ مبالغةً في وضعِ رُتبتِهِ العاليةِ وحطِّها عن مَنْصِبِ النُّبوَّةِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

الـدَّلالـةُ على الـتَّـصـغـيرِ والتَّحقيرِ، من مقتضى الصِّراع المذكور

اسمُ الإشارةِ في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُنصرفٌ إلى نوحٍ ﷺ، أي: ما نوحٌ إلا بَشَرٌ مِثْلُكم، وذلكَ يقتضي أنَّ كلامَ المَلَأ قد وقعَ بحضرةِ نوحٍ ﷺ في وقتِ دعوتِهِ، فعَدَلوا عنِ اسمِهِ العلَمِ إلى اسمِ الإشارةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 131.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

للقريبِ؛ لأنَّ مرادَهم تصغيرُ أمرِهِ وتحقيرُهُ لدى عامَّتِهم؛ لئلّا يتقبَّلوا قولَهُ[1].

نُكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿بَشَرٌ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ مبينٌ عن المعنى المراد

لمّا كانَ مقصودُ قومِ نوحٍ ﷺ قَصْرَهُ على البشريَّةِ، وإنكارَ أنْ يكونَ لهُ مزيَّةٌ على باقي البَشَرِ جيءَ بلفظِ ﴿بَشَرٌ﴾ في قولِهِ ﷺ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مُنكَّرا؛ لإفادةِ أنَّهُ فردٌ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالبَشَرِ، والمعنَى: ما هذا إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ البَشَرِ، لا يختلفُ عن باقي البَشَرِ في الجنسِ والوصفِ، فلا يتجاوزُ البشريَّةَ إلى الاتِّصافِ بكونِهِ رسولًا مِنْ عندِ اللّهِ كما يدَّعي، وعلى هذا فيمكنُ أن يفيدَ التّنكيرُ التّحقيرَ المستفادَ من قرارة أنفسِهم تجاهَ نوحٍ ﷺ.

نُكتةُ الوصفِ بالقولِ: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾:

تأكيدُ مساواةِ نوحٍ لهُم في البشريَّةِ، لنفي صدقِ إرساله

في وصفِ قومِ نوحٍ ﷺ لهُ، بأنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهم في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تأكيدٌ لكونِهِ بَشَرًا مُساويًا لهُم في جنسِ البشريَّةِ وأوصافِها، فلم يَكْتَفوا بوصفِهِ بكونِهِ بَشَرًا، بل زادوا على ذلكَ إثباتَ مساواتِهِ لهُم، والمعنَى: ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم، أي: مُساويكُم في البشريَّةِ، فلا يعلمُ ما لا تعلمونَ، فأنَّى يكونُ لهُ اتِّصافٌ بالرِّسالةِ؟![2].

بلاغةُ الكنايةِ في الوصْفِ بالبشريَّةِ:

الإخبارُ بالبشريَّةِ كنايةٌ عن تكذيبِ دعوَى الرِّسالةِ

إخبارُ المَلَأ عن نوحٍ ﷺ بأنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهم في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مُستعمَلٌ كنايةً عن تكذيبِهِ في دعوى الرِّسالةِ بدليلٍ مِنْ ذاتِهِ، أوْهَموا بذلكَ أنَّ المساواةَ في البشريَّةِ مانعةٌ مِنَ الوَساطةِ بينَ اللّهِ ﷻ وبينَ خَلْقِهِ، وهذا مِنَ الأوهامِ الَّتي أضلَّتْ كثيرًا مِنَ الأُمَمِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 557، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 131.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

دلالةُ إعراب ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾:

وصْفُهُ بإرادة التَّفضُّلِ عليهم اتِّهامٌ له بالطَّمع في سلطانِهم

جملةُ ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿بَشَرٌ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أي: يريدُ أنْ يطلبَ الفَضْلَ عليكُم ويتقدَّمَكم بادِّعاءِ الرِّسالةِ، معَ كونِهِ مِثْلَكم، وصَفوهُ بذلكَ؛ إغضابًا للمُخاطَبينَ عليهِ ﷺ، وإغراءً لهُم على مُعاداتِهِ ﷺ[1]، فإنَّ سادةَ القومِ ظَنّوا أنَّهُ ما جاءَ بتلكَ الدَّعوةِ إلّا حُبًّا في أنْ يَسودَ على قومِهم، فخَشوا أنْ تزولَ سيادتُهم، وهم بجهلِهم لا يتدبَّرونَ أحوالَ النُّفوسِ، ولكنَّهم يَقيسونَ غيرَهم على مِقْياسِ أنفُسِهم، فلمّا كانَتْ مطامحُ أنفُسِهم حبَّ الرئاسةِ والتّوسُّلَ إليها بالانتصابِ لخِدْمةِ الأصنامِ، توهَّموا أنَّ الَّذي جاءَ بإبطالِ عِبادةِ الأصنامِ إنَّما أرادَ منازعتَهم سُلطانَهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يُرِيدُ﴾:

الدَّلالةُ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، ملائمةٌ للمضارعيَّة

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لِما تُفيدُهُ هذهِ الصّيغةُ مِنْ تجدُّدِ الفعلِ واستمرارِهِ، وقد أوهمَ المَلَأُ قومَهم بذلكَ أنَّ غايةَ نوحٍ ﷺ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ هي التفضُّلُ على قومِهِ، وطلبُ الزَّعامةِ والرِّئاسةِ فيهِم، وفي ذلكَ صدٌّ لهُم عن سبيلِهِ، ومزيدُ تنفيرٍ لهُم عنِ اتِّباعِهِ.

بلاغةُ الكنايةِ في معنى التَّفضُّلِ عليهم:

إرادةُ التَّفضُّل بالسّيادةِ عليهم طعنٌ منهم في تجرُّدِ نوحٍ لله

المرادُ بالتَّفضُّلِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ طلبُ الفَضْلِ وتكلُّفُهُ[3]، أي: يريدُ أنْ يَشْرُفَ عليكُم، بأنْ يكونَ متبوعًا، وأنتم لهُ تَبَعٌ[4]، وهو كنايةٌ عنِ السّيادةِ، كأنَّهُ قيلَ: يريدُ أنْ يَسودَكم ويتقدَّمَكم بادِّعائِهِ الرِّسالةَ معَ كونِهِ مِثْلَكم[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 557، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 118.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 228.

وقيلَ: صيغةُ التَّفعُّلِ مستعارةٌ للكمالِ، فإنَّ ما يُتكلَّفُ لهُ يكونُ على أكملِ وجهٍ، فكأنَّهُ قيلَ: يريدُ كمالَ الفَضْلِ عليكُم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ (على):

لمّا كانَ مرادُ المَلَأ تنفيرَ قومِهم عنِ اتِّباعِ نوحٍ عليه السلام عبَّروا في قولِهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بحرفِ الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، لِما يُشيرُ إليهِ مِنِ استعلاءِ تفضُّلِ نوحٍ عليه السلام على القومِ، وأنَّهم تحتَ تفضُّلِه.

الـدَّلالـةُ على الاستعلاءِ منبئةٌ عـن الـطَّـمـعِ والكبرياء

إعرابُ جملةِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

جملةُ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقد مهَّدوا لجملةِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بأنَّ البشريَّةَ مانعةٌ مِنْ أنْ يكونَ صاحبُها رسولًا للهِ[2].

عـطـفُ الجملةِ عـلى مـا قـبْلَـها يـحـقِّـقُ تـواصُـلَ المعاني، وتعانُقَ الجمل

دلالةُ (لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

(لو) الشَّرطيَّةُ في قولِ الحقِّ جلَّ وتبارك: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، والكلامُ بيانٌ لعدمِ رسالةِ البَشَرِ على الإطلاقِ على الزَّعمِ الفاسدِ للمَلَأ بعدَ تحقيقِ بشريَّةِ نوحٍ عليه السلام، أي: لو شاءَ اللهُ تعالى إرسالَ الرَّسولِ لأرسلَ رُسُلًا مِنَ الملائكةِ[3].

حـرفُ الامـتـنـاعِ مفيدٌ في الدَّلالة عـن المقصود في السّياق

وتقريرُ شُبْهتِهم: أنَّ اللهَ سبحانَهُ لو شاءَ إرشادَ البَشَرِ لوجبَ أنْ يَسْلُكَ الطَّريقَ الَّذي يكونُ أشدَّ إفضاءً إلى المقصودِ، وبِعْثةُ الملائكةِ أشدُّ إفضاءً إلى هذا المقصودِ مِنْ بِعْثةِ البَشَرِ؛ لأنَّ الملائكةَ لعُلوِّ شأنِهم وشدَّةِ سَطْوتِهم وكثرةِ عُلومِهم ينقادُ الخَلْقُ إليهم، ولا يَشُكّونَ في رسالتِهم، فلمّا لم يفعلْ ذلكَ عُلِمَ أنَّهُ ما أرسلَ رسولًا البتَّةَ[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 271.

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

الأصلُ في (لو) المُضيُّ في جملتَيْها، فناسبَ ذلك مضيُّ (شاء)

(لو) للشَّرطِ في الماضي، أي: لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ فرْضًا في الماضي، معَ القطعِ بانتفاءِ الشَّرطِ، ولذلكَ يلزمُ في جملتَيْها المُضيُّ وعدمُ الثُّبوتِ[1]، ولذلكَ عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ سُلطانُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

نُكتةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ:

الحذفُ إيجازًا من بليغِ السّياقِ المدرجِ في هذه الآية

قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ معناهُ: ولو شاءَ اللّهُ أنْ يُرسِلَ رسولًا لأنزلَ ملائكةً رُسُلًا[2]، وقد حُذِفَ مفعولُ الفعلِ ﴿شَآءَ﴾؛ لظهورِهِ مِنْ جوابِ (لو)، وحذفُ مفعولِ المشيئةِ جائزٌ إذا دلَّتْ عليهِ القرينةُ، وذلكَ ضربٌ مِنَ الإيجازِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ الإنزالِ للملائكة

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسْنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ لِما يُنبِئُ عنهُ لفظُ الجلالةِ مِنْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها القُدرةُ على إنزالِ الملائكةِ وجعلِهم رُسُلًا للبَشَرِ، والمعنى: ولو شاءَ اللّهُ - أي: المَلِكُ الأعلى - الإرسالَ إليكُم وعدمَ عِبادةِ غيرِهِ لأنزلَ لأجلِ ذلكَ ملائكةً[4].

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَأَنزَلَ﴾:

اللّامُ الواقعةُ في جوابِ (لو) وهي مفيدةٌ في بابها

لامُ ﴿لَأَنزَلَ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هي اللّامُ الواقعةُ في جوابِ (لو) الّتي هي أداةُ الشَّرطِ، وهي للتّأكيدِ.

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿لَأَنزَلَ﴾:

الجملةُ جوابُ الشَّرطِ، وهي مبرزةٌ لمقتضى المشيئةِ

جملةُ ﴿لَأَنزَلَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 281 - 284.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 131.

هي جملةُ جوابِ الشَّرطِ، ومعنَى الكلامِ: أنَّهُ قدِ امتنعَ الإنزالُ لامتناعِ المشيئةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإنزالِ دونَ الإرسالِ:

قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، معناهُ: ولو شاءَ اللهُ إرسالَ الرَّسولِ لأرسلَ رُسُلًا مِنَ الملائكةِ، وإنَّما قيلَ: ﴿لَأَنزَلَ﴾ دونَ (لأرسلَ)؛ لأنَّ إرسالَ الملائكةِ لا يكونُ إلّا بطريقِ الإنزالِ[1]، يعني: أنَّ إرسالَ الملائكةِ إلى العِبادِ يستلزمُ نُزولَهم إليهم[2]؛ لأنَّ مَحَلَّ الملائكةِ هو السَّماءُ، والانتقالُ منها إلى الأرضِ نزولٌ.

إرسالُ الملائكةِ لا يكونُ إلّا بطريقِ الإنـــزالِ مـن السَّماء

نُكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾:

التَّنكيرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ للتَّكثيرِ، أي: ولو شاءَ اللهُ لأنزلَ ملائكةً ذوي عددٍ كثيرٍ، وفي ذلكَ تحكُّمٌ منهُم وإيغالٌ في العِنادِ والمكابرةِ، حيثُ لم يَرْضَوْا بإنزالِ مَلَكٍ واحدٍ.

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: ولو شاءَ اللهُ لأنزلَ ملائكةً ذوي شأنٍ عظيمٍ، ويُؤيِّدُ ذلكَ تحقيرُهم لنوحٍ عليه السلام بالإشارةِ إليهِ إشارةَ القريبِ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

التَّنكيرُ للتَّكثيرِ أوِ التَّعظيمِ، مفيدٌ في البيانِ المتوخّى

نُكتةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

جملةُ ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مستأنفةٌ، قصدَ المَلَأُ بها تكذيبَ الدَّعوةِ بعدَ تكذيبِ الدّاعي عليه السلام، فلذلكَ جيءَ بها مستأنفةً غيرَ معطوفةٍ؛ تنبيهًا على أنَّها مقصودةٌ بذاتِها، وليسَتْ تكملةً لِما قبلَها، بخلافِ أسلوبِ عطفِ جملةِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ إذ مضمونُها مِنْ تمامِ غرضِ ما قبلَها[3].

الـجـمـلـةُ مـسـتـأنـفـةٌ مقصودةٌ بذاتِها

معنى ﴿مَّا﴾ في قولِهِ: ﴿مَّا سَمِعْنَا﴾:

﴿مَّا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 569.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.

نافيةٌ، جعلَ المَلَأُ انتفاءَ عِلمِهم بالشَّيءِ حُجَّةً على بُطلانِهِ، وهو مجادلةٌ سُفسطائيَّةٌ؛ إذ قد يكونُ انتفاءُ العِلمِ عن تقصيرٍ في اكتسابِ المعلوماتِ، وقد يكونُ لعدمِ وجودِ سببٍ يقتضي حدوثَ مِثْلِهِ، بأنْ كانَ النّاسُ على حقٍّ، فلم يكنْ داعٍ إلى مُخاطَبتِهم بمِثْلِ ذلكَ، وقد كانَ النّاسُ مِنْ زمنِ آدمَ ﷺ على الفِطْرةِ، حتَّى حدثَ الشِّركُ في النّاسِ، فأرسلَ اللّهُ نوحًا ﷺ، فهو أوَّلُ رَسولٍ أُرسِلَ إلى أهلِ الأرضِ[1].

حُجَجُ الكفّارِ في هذه الآيةِ القرآنيَّةِ نوعٌ من المجادلةِ السّفسطائيَّةِ

مرجعُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿بِهَٰذَا﴾:

الإشارةُ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ راجعةٌ إلى نوحٍ ﷺ، أو إلى ما كلَّمَهم بهِ مِنَ الحثِّ على عِبادةِ اللّهِ تعالى، والمعنَى: ما سَمِعْنا بمِثْلِ هذا الكلامِ، أو بمِثْلِ هذا الَّذي يدَّعي وهو بَشَرٌ أنَّهُ رسولُ اللّهِ.

مفادُ الإشارةِ إلى نوحٍ ﷺ، أو إلى ما نُقِلَ عنه من كلامٍ

وبيانُ هذهِ الشُّبهةِ: أنَّهم كانوا لا يُعوِّلونَ في شيءٍ مِنْ مذاهبِهم إلّا على التَّقليدِ والرُّجوعِ إلى قولِ الآباءِ، فلمّا لم يَجِدوا في نُبوَّةِ نوحٍ ﷺ هذهِ الطَّريقةَ حَكَموا بفسادِها[2].

نُكتةُ تعديةِ فعلِ السَّماعِ بالباءِ:

لمّا كانَ السَّماعُ المنفيُّ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ليسَ سماعًا بآذانِهم لكلامٍ في زمنِ آبائِهم، بلِ المرادُ: ما بلغَ إلينا وقوعُ مِثْلِ هذا في زمنِ آبائِنا، عُدّيَ فعلُ ﴿سَمِعۡنَا﴾ بالباءِ؛ لتضمينِهِ معنى الاتِّصالِ[3].

تضمينُ السَّماعِ معنى الاتِّصالِ مفيدٌ في البيانِ

وقيلَ: الباءُ في قولِهِ: ﴿بِهَٰذَا﴾ صِلَةٌ، أي: ما سَمِعْنا هذا كائنًا في آبائِنا الأوَّلينَ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 271.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 118.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿بِهَٰذَا﴾:

غايةُ الإشارةِ في التَّعبيرِ محضُ الإهانةِ والتَّحقير

يدلُّ استعمالُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ على لسانِ المَلَأِ مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على تحقيرِهم للمُشارِ إليهِ، وهو نوحٌ عليه السلام، أوِ الكلامُ الَّذي جاءَهم بهِ، وهو الدَّعوةُ إلى عبادةِ اللهِ ﷻ وتوحيدِهِ، فيكونُ هؤلاءِ القومُ قد جَمَعوا بينَ الإنكارِ والتَّكذيبِ وبينَ الاستهزاءِ والتَّحقيرِ، كما هو دَيْدَنُ المُستكبِرينَ في كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبةِ.

معنى حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿فِي ءَابَآئِنَا﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ للظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، والمعنى: ما سَمِعْنا بهذا في زمنِ أجدادِنا.

نُكتةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿فِي ءَابَآئِنَا﴾:

الإيجازُ بحذفِ المضافِ إليه من الأساليبِ البلاغيَّةِ المتداولة

لمّا كانَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ للظَّرفيَّةِ الزّمانيَّةِ، وهو يقتضي زَمَنًا؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ مدخولُهُ على تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الآباءَ لا يَصلُحُ للظَّرفيَّةِ، أي: (ما سَمِعْنا بهذا في مُدَّةِ آبائنا الأوَّلينَ)[1].

بلاغةُ وصْفِ الآباءِ بلفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

بيانُ فرْطِ غُلوِّهم في العِنادِ من خلالِ التَّكذيبِ والفساد

قولُ المَلَأِ مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناهُ: ما سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الماضينَ قبلَ بِعْثةِ نوحٍ، وقد قالوا ذلكَ إمّا لكونِهم وآبائِهم في فترةٍ متطاولةٍ بالفعلِ، وإمّا لفَرْطِ غُلوِّهم في التَّكذيبِ والعِنادِ، وانهماكِهم في الغَيِّ والفساد[2]، حيثُ جَعَلوا النَّفْيَ يمتدُّ إلى فترةٍ زمنيَّةٍ متطاولةٍ وإنْ لم تكنْ كذلكَ في الواقعِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

نُكتةُ فصلِ الجملة مِنَ الآية:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ مفصحٌ في الدَّلالة عن المراد

جملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جميعَ ما قالوهُ يُثيرُ في نُفوسِ السّامعينَ أنْ يتساءَلوا: إذا كانَ هذا حالَ دعوتِهِ في البُطلانِ فما الَّذي دعاهُ إلى القولِ بها؟ فيُجابُ بأنَّهُ أصابَهُ خَلَلٌ في عَقْلِهِ، فطلبَ ما لم يكنْ لينالَهُ مِثْلُهُ مِنَ التَّفضُّلِ على النّاسِ كلِّهم بنسبتِهم إلى الضَّلالِ، فقد طَمِعَ فيما لا يطمعُ عاقلٌ في مِثْلِهِ، فدلَّ ذلكَ على أنَّهُ مجنونٌ[1].

بلاغةُ القَصْرِ في الآية الكريمة:

بيانُ الغايةِ من قَصْرِ نوحٍ عليه السلام على صفةِ الجُنونِ

القَصْرُ المستفادُ مِنْ ﴿إِنْ﴾ و﴿إِلَّا﴾، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ مِنْ قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، فقد قصرَ المَلَأُ نوحًا عليه السلام على صفةِ الجُنونِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: ليسَ برسولٍ مِنَ اللهِ، بل هو مجنونٌ[2].

نُكتةُ تنكيرِ قولِه: ﴿رَجُلٌۢ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ من بليغِ المعنى المستفادِ

تنكيرُ ﴿رَجُلٌۢ﴾ في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ للإفرادِ، والمعنَى: إنْ هو إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ الرِّجالِ مجنونٌ، ليسَ برَسولٍ مِنَ اللهِ، ولا مزيَّةَ لهُ على غيرِهِ مِنَ البَشَرِ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّحقيرِ، بدليلِ قولِهم فيما سبقَ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿جِنَّةٌ﴾:

مفادُ التَّنكيرِ للنَّوعيَّةِ أو التَّعظيمِ في هذه الدَّلالةِ

تنوينُ ﴿جِنَّةٌ﴾ في قولِ المَولى عزَّ سُلطانُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: إنْ هو إلّا رجلٌ مُتلبِّسٌ بنوعٍ مِنَ الجُنونِ، وهذا اقتصادٌ منهُم في حالِهِ، حيثُ احترَزوا مِنْ أنْ يورِّطوا أنفُسَهم في وصفِهِ بالخَبالِ، مَعَ أنَّ المُشاهَدَ مِنْ حالِهِ يُنافي ذلكَ، فأوهَموا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

قومَهم أنَّ بهِ جُنونًا خفيفًا، لا تَبْدو آثارُهُ واضحةً[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: (إنْ هو إلّا رجلٌ بهِ جُنونٌ عظيمٌ، ولذلكَ أتاكُم بما أتاكُم بهِ).

سرُّ استعمالِ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾:

الباءُ في جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ للملابَسةِ، أي: إن هو إلّا رجلٌ مُتلبِّسٌ بالجُنونِ[2]، واتِّهامُ المرسلِ بالجنون اختلاقٌ لا يستندُ إلى عقلٍ ولا حجَّةٍ.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٌ﴾:

قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٌ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو إفادةُ تلبُّسِ شيءٍ بنوحٍ عليه السلام في زعمِهم الفاسدِ، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو الجُنونُ، ولأنَّ تأخيرَ ﴿جِنَّةٌ﴾ يترتَّبُ عليهِ تصحيحُ كونِهِ مبتدأً معَ كونِهِ نكرةً.

أهميَّةُ العِنايةِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقُ للمُؤخَّرِ

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾:

الفاءُ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ للتَّفريعِ، فرَّعَ المَلَأُ على الحُكمِ بجُنونِ نوحٍ عليه السلام أمرًا لقومِهم بانتظارِ ما ينكشفُ عنهُ أمرُهُ بعدَ زمانٍ، وذلكَ إمّا شِفاءٌ مِنَ الجُنونِ، فيرجعُ إلى الرُّشْدِ، أو ازديادُ الجُنونِ بهِ، فيتَّضحُ أمرُهُ، وأنَّهُ لا اعتدادَ بكلامِهِ[3].

السّياقُ يتوخّى تفريعَ الكلامِ؛ لتحقيقِ الإفهامِ

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾:

الأمرُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ للوجوبِ، لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ في هذا السّياقِ، بلِ السّياقُ يقتضيهِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ مُكابَرةٍ وعِنادٍ مِنَ المَلَأِ، ومقامُ حضٍّ منهُم لقومِهم على

سياقُ الأمرِ بالتَّربُّصِ للوجوبِ، والحقُّ ثابتٌ في كلِّ آنٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

التَّمسُّكِ بما هم عليهِ مِنْ عِبادةِ الأصنامِ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ الأمرُ لغيرِ الوجوبِ، والمعنَى: فانتظِروا حالَهُ حتَّى تتبيَّنَ عاقبةُ أمرِهِ.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦ﴾:

التَّربُّصُ: التَّوقُّفُ عن عملٍ يُرادُ عملُهُ والتَّريُّثُ فيهِ؛ انتظارًا لِما قد يُغني عنِ العملِ، أوِ انتظارًا لفُرْصةٍ تُمكِّنُ مِنْ إيقاعِهِ على أتقنِ كيفيَّةٍ لنجاحِهِ، وهو فعلٌ قاصرٌ يتعدَّى إلى المفعولِ بالباءِ الَّتي هي للتَّعديةِ، ومعناها السَّببيَّةُ، أي: كانَ تربُّصُ المُتربِّصِ بسببِ مدخولِ الباءِ، والمرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾: بسببِ ما يطرأُ عليهِ مِنْ أحوالٍ، فهو على نيَّةِ مضافٍ حُذِفَ لكثرةِ الاستعمالِ[1].

الفعلُ (تربَّص) متعدٍّ بالباء في مقام مكابرةِ الملأِ وعنادِهم

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ بمعنى (إلى)، أي: فتربَّصوا بهِ إلى حينٍ[2].

نُكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿حِينٍ﴾:

تنكيرُ ﴿حِينٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ للإفرادِ، إذ لم يُرِدِ المَلَأُ بالحينِ حينًا معيَّنًا، وهو في المعنَى كقولِكَ: دَعْهُ إلى يومٍ، ولم تُرِدْ: إلى يومٍ معلومٍ واحدٍ مِنْ ذي قبلُ، ولا إلى مقدارِ يومٍ معلومٍ، إنَّما هو كقولِكَ: إلى يومٍ ما[3]، ومرادُ المَلَأِ: فتربَّصوا بهِ إلى وقتٍ يُريحُكم القَدَرُ منهُ[4].

التَّنكيرُ للإفرادِ مبينٌ عن المعنى المراد

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّربُّصُ والانتظارُ:

فُرِّقَ بينَ الانتظارِ والتَّربُّصِ: بأنَّ التَّربُّصَ طولُ الانتظارِ، وأمّا

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 132.
(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 234.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141.

الانتظارُ فيكونُ قصيرَ المُدَّةِ وطويلَها، ولذلكَ يُسمَّى المُتربِّصُ بالسِّلعةِ وغيرِها مُتربِّصًا؛ لأنَّهُ يُطيلُ الانتظارَ لزيادةِ الرِّبْحِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1].

التَّربُّصُ أخصُّ مِنَ الانتظارِ وهو طويلُ المدَّةِ، والانتظارُ لا يُشترَطُ فيه ذلك

والتَّربُّصُ أشدُّ مِنَ الانتظارِ مِنْ ناحيةِ اللَّفظِ والحروفِ الَّتي يتركَّبُ منها، فيكونُ فيهِ على النَّفْسِ ثِقَلٌ وتكلُّفٌ وترقُّبٌ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 207 - 208.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»